

ولندع الآن هذا واناخذ الجزء الأول من احياء علوم الدين
فنقلب صفحاته فنعرف لأول وهلة انه كتاب في علم النفس
والتربية والتعليم . إذا أكثر الكتب النفسية والتربوية الحديثة
يفتحها أصحابها بتمهيدات في معنى العلم وأغراضه ، ومواضيع
العلوم وغاياتها وأقسامها وأسمائها، وتعرف للنفس أو العقل أو الروح،
وتقسم للشعور واللاشعور، وتحديد للفراز والميول وتبين
للسلوك وأنواعه المادية والشاذة ، وما يتبع هذا من المواضيع
النفسية ، فمرى الغزالي رحمه الله يبدأ كتابه الاحياء بالتحدث عن
العلم والعقل والعقائد ، ثم يسترسل في مواضيعه الاسلامية
المرتكزة على تلك المعرفة النفسية الواسعة المستمدة من تأمله
الذاتي العميق وملاحظته الخارجية الدقيقة. وهانحن نراه يتحدث
عن العلم في سبعة فصول يذكر فيها فضل العلم والتعلم والتعليم
ويذكر أسماء العلوم ومواضيعها ، وآداب العلم والتعلم وآفات
العلم والملاء والعقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار

ولنصنع إليه الآن وهو يتحدث عن فضيلة العلم ، مندفعاً
بالمعرفة الضرورية والايمان القوى والمحافظة المشبوبة : « اعلم أن
الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره وإلى ما يطلب
لذاته وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً . فما يطلب لذاته أشرف
وأفضل مما يطلب لغيره . وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيت
لذيذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته ، ووجدته وسيلة إلى الآخرة
وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به .
وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدي السادة الأبدية وأفضل
الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا
يتوصل إلى العمل إلا بالعلم؛ فأسل السعادة في الدنيا والآخرة هو
العلم فهو إذن أفضل الأعمال . »

يستمر الامام الجليل مندفعاً في تبين فضائل العلم وتفاوت هذه
الفضائل بالنسبة لغير الناس عامة واسمادة المسلمين في الدنيا
والآخرة بصورة خاصة . ونحن نلمح هنا في هذا القول الذي
سهره قلم الغزالي عن فضيلة العلم أن الغزالي يشير إلى وحدة الشعور
والملية العقلية إشارة واضحة صريحة . يقول ان يتوصل إلى
السعادة إلا بالعلم والعمل ، فالعلم والعمل هما الظاهران الأساسيان
لشعور الانساني؛ أما العاطفة فهي ما تجده في نفسك من لذة أو ألم

الغزالي وعلم النفس

للاستاذ حمدي الحسيني

الادراك

تبين مما سبقنا في المقال السابق أن الامام الغزالي رحمه الله
قد حاول أن يفهم طبيعة العقل وكنهه . فمجز عن فهم هذه
الطبيعة وإدراك هذا الكنه . « ويسألونك عن الروح قل الروح
من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فلجأ إلى آثار العقل
ومظاهره أو معانيه وصفاته . فوفق في فهم هذا كل التوفيق
وأدرك من صفات العقل ومعانيه ما جاء موافقاً كل الموافقة لما
وصل إليه علم النفس الحديث في هذا الموضوع ؛ فقد أدرك الامام
الغزالي ببصيرته النيرة ان في الإنسان استعدداً للفهم، وان هذا
الاستعداد غريزي فطري، وأنه كالنور الذي يقذف في القلب فيمينا
صاحبه على إدراك الأشياء ، ثم راح يقسم هذا الإدراك للأشياء
أقساماً اعتبرها أجزاء العقل أو صفاته ومعانيه ، فكان موافقاً
أيضاً غاية التوفيق في ذلك التقسيم الدقيق الذي شمل المعرفة
العقلية من أبسط أنواعها الغريزية إلى أرق درجاتها الفكرية .
ثم أدرك الغزالي أن العقل وحدة تشمل خبرة الانسان الماضية
والحاضرة وميوله النفسية الموروثة والمكتسبة وتتجلى هذه
الوحدة المعجبية في الادراك والوجدان والنزوع التي هي مظاهر
الشعور وعناصره البسيطة .

ولهذا رأينا يتحدث في الجزء الأول من احياء علوم الدين
عن العلم والعقل في قسم واحد مما دلنا دلالة تامة على أنه كان
رحمه الله مدركاً ما قرره علم النفس الحديث من وحدة العقل الشاملة
لخبرة الانسان الماضية والحاضرة وميوله النفسية الموروثة والمكتسبة
وأن هذه الوحدة تتجلى في مظاهر الشعور الثلاثة وهي الإدراك
أو ما سماه هو (العلم) والوجدان وهو ما سماه (الحال) والنزوع
وهو ما سماه (العمل) .

بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول وهذه الحالة تسمى ظناً .

(والثالث) أن تميل النفس إلى التصديق بالشئ بحيث يطلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة حقيقة ، إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والأصغاء إلى التشكك والتجوز ، اتسعت نفسه للتجوز وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين . (والرابع) المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه . فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً . وأما الفقهاء والمتصوفة فلا يلتفتون في اليقين إلى التجوز والشك بل إلى استيلائه على العقل ، فهما مالت النفس إلى التصديق بشئ وغلب ذلك على القلب واستولى عليه حتى صار هو المتحكم والتصرف في النفس بالتجوز والمنع سمى ذلك يقيناً . ولنسمع أيضاً ما يقوله الغزالي في الإيحاء الذي يتكون به الاعتقاد واليقين : أعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوئه ليحفظه حفظاً ، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً . فابتدأوا الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والابقان والتصديق به . وذلك مما يفمل في الصبي بغير برهان .

تقف الآن قليلاً فاستعرض ما مر بنا من أقوال الغزالي استعراضاً سريعاً لترى فيها نظريات نفسية معتبرة وقواعد علمية مقررة ، ترى أحسن وصف لمعاني العقل وصفاته وأحسن تقسيم لهذه المعاني والصفات ، ترى وصفاً دقيقاً للعقل الباطن والعقل الزاوي والوحدة العقلية ومظاهر الشعور الإنساني . ويدهشنا حقاً أن ترى هذه المعرفة أزاخرة بأسرار العقل الباطن التي أوصات الغزالي إلى أدق ما وصل إليه العلم الحديث عن الاستمواء الذاتي والخارجي ، وهو اليقين الذي يستولى على القلب ، وما هذا اليقين الذي يستولى على القلب إلا ما يسميه علم النفس الحديث بانقسام الشخصية أي انفصال الآراء والذكريات والمواطف والممارسة للفكرة الموحى بها ووقوفها موقفاً سليماً في حين أن الآراء والانفعالات المؤيدة هي التي تكون بارزة في الشعور ومتخذة موقفاً إيجابياً .

صمدى الحسيني

يصحب الإدراك والنزوع أو العلم والعمل . وهو يؤكد هذا المعنى فيما بعد بقوله الواضح الصريح « إن العلم ينقسم إلى علم مكاشفة وعلم معاملة والمعاملة التي كانت المبدأ الماثل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد وفعل وترك وهو معنى الاعتقاد العلم الأكيد الذي لا شك فيه . ومعنى بالفعل والترك النزوع الإيجابي والنزوع السلبي ، وما يسميه علم النفس الحديث (بالتوفيق والكف) . وكانت الغزالي أراد أن يزيد هذا المعنى وضوحاً وتوكيداً ، فقال في موضوع آخر : لا يستطيع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يتقص عامل حتى يتقص يقينه . أما علم المكاشفة الذي ذكره الغزالي فهو وحى المتل الباطن وإلهام اللاشعور . ولنسمع الآن ما يقوله الغزالي في هذا الموضوع :

« أعلم أن العلم قسمان ، علم مكاشفة وعلم معاملة . أما علم المكاشفة فهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ، وهو علم الصديقين والمقربين وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتركه من صفاته الذمومة ويتكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجمة غير متضح ، فتضح إذا ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية » ثم يقول : « ونعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح جلية الحق في الأمور انصافاً يجرى مجرى البيان الذي لا يشك فيه وهذا ممكن في جوهر الإنسان » .

وما دمتنا نتحدث عن رأي الغزالي في العلم كجزء من العملية العقلية فقد وجب علينا أن نتحدث عن العقيدة والایمان واليقين في نظر الغزالي لأنها أنواع من العلم تتخذ أشكالاً خاصة في النفوس البشرية ، وتولد فيها مواطف قوية تدفع بأصحابها إلى أعظم الأعمال ، وتعينهم على تحمل أفدح الآلام . ولنسمع الآن ما يقوله الغزالي في هذا الموضوع الجليل : « أعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لعنيين مختلفين أما النظائر والمتكلمون فيمربون به عن عدم الشك . إذ ميل النفس إلى التصديق بالشئ له أربع مقامات .

(الأول) أن يستدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك .

(الثاني) أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور